

مراكز القوى والدولة الأيوبية

للدكتور

حامد غنيم أبو سعيد

أستاذ التاريخ الإسلامى المشارك

بكلية العلوم الاجتماعية

الدكتور حامد غنيم أبو سعيد

- تخرج فى كلية دار العلوم جامعة القاهرة سنة ١٩٥٩م
- حصل على الماجستير فى التاريخ الإسلامى من جامعة القاهرة سنة ١٩٦٣م
- حصل على الدكتوراه من جامعة كامبردج سنة ١٩٦٧
- عمل بالتدريس بجامعة القاهرة لمدة أربع سنوات، وجامعة الملك سعود لمدة ست سنوات
- له مجموعة من مؤلفات التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية منها:
 - أ - الجبهة الإسلامية فى عصر الحروب الصليبية
 - ب - العلاقات العربية السياسية فى عهد البويهيين
 - ج - انتشار الإسلام حول بحر قزوين
 - د - مراكز الحضارة الإسلامية .

١ - مقدمة :

مراكز القوى هي تلك الجماعات التي تساعد ظروف معينة على أن تشكل من ذاتها قوة سياسية أو عسكرية، أو سياسية عسكرية، ومع مرور الزمن ومساعدة الظروف تصل القوة المتزايدة بهذه الجماعة إلى حد تشكل معه خطرا لا يمكن تجاهله على السلطة الشرعية، وهي السلطة التي تمثل النظام، ويقودها ويوجهها كبير هذا النظام، ويترتب على هذا حدوث نوع من التنافس أو التزاحم بين الجانبين، ثم يتطور الأمر إلى تفجر الصراع بين الجانبين، وصراع كهذا يؤدي بالضرورة إلى واحدة من نتيجتين: إما انتصار السلطة الشرعية وبالتالي استمرار النظام الذي تمثله هذه السلطة، وإما انتصار مركز القوة ويستتبع ذلك أن تتخلى السلطة عن مكانها لمركز القوة الغالب، أو أن ترسخ له وتصير أداة في يده.

والدولة الأيوبية يعرفها المثقف العادى من خلال شخصية صلاح الدين الأيوبي، ويعرفها المثقف المهتم بدراسة التاريخ من خلال الدور الذي لعبته هذه الدولة في مواجهة الصليبيين على مدى عهدها الذي استغرق ما يزيد على ثمانين سنة، غير أن الدارس المتخصص يرى أن تاريخ الدولة الأيوبية يتكون من مجموعة زوايا سلط ضوء كاف على بعضها، بينمابقى البعض الآخر يعانى من التجاهل أو النسيان، ومن زوايا النوع الأخير تلك التى تمثلت فى مراكز القوى وما خلفته على تاريخ الدولة الأيوبية من الألوان والظلال.

٢ - الأسدية :

هذه الجماعة ، كما هو واضح من اسمها، تنتسب إلى أسد الدين شيركوه الذى تولى

قيادة جيش نور الدين محمود في مصر، والذي تولى وزارة الدولة الفاطمية ما يزيد قليلا على شهرين. ومن دراسة تاريخ هذه الفترة نجد أن معظم القادة والساسة كانوا يسرون على سياسة إحاطة أنفسهم بمجموعة من الأتباع، عن طريق الشراء أو غيره، وهذا الأسلوب ضروري حتمته الصراعات والتقلبات السياسية الكثيرة التي شهدتها مصر الفاطمية في مرحلتها الأخيرة. وقد سار على هذا النهج أسد الدين شيركوه، إذ أنه أحاط نفسه بمجموعة من الأتباع ليساندوه في تعامله ومجاهداته، وكان يوجد على الساحة أكثر من طرف يحسب أسد الدين حسابه ويعد للمجابهة معه، من بين هذه الأطراف الوزير الفاطمي شاور بن مجير السعدي، ومنها القصر الفاطمي، وذلك فضلا عن رفاق أسد الدين في جيش نور الدين والذين كانوا يرون أنفسهم مساوين له، أو حتى أحق منه بتولى القيادة.

ومن تفحص المصادر التاريخية نجد أن البعض من الأسدية، من بينهم صلاح الدين الأيوبي، هم الذين قاموا بعملية اغتيال الوزير شاور، وبالتالي آلت هذه الوظيفة الهامة إلى كبيرهم أسد الدين شيركوه، لم يعمر أسد الدين في الوزارة طويلا ومن ثم اشأبت الأعناق وتطلع أكثر من واحد من أصحاب أسد الدين لخلافته في المنصب الكبير^(١).

في هذا الظرف الدقيق برزت جماعة الأسدية، وأخذ زعيمها بهاء الدين قراقوش يشارك في توجيه الأحداث حتى آلت الوزارة إلى صلاح الدين الأيوبي^(٢) الذي يمكن اعتباره واحدا من أتباع أسد الدين.

تولى صلاح الدين الوزارة الفاطمية بمؤازرة الأسدية، ثم تطورت به الأمور حتى أقام دولته في مصر والشام، وعلى مدى عهده الذي استغرق اثنتين وعشرين سنة استعان صلاح الدين بالأسدية كقادة وجنود في جيشه الذي تصدى للصليبيين، وحقق ضدهم العديد من الانتصارات، وإضافة إلى ذلك عهد صلاح الدين إلى قادة الأسدية

(١) عن المتطلعين إلى منصب الوزارة الفاطمية اقرأ لابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٦ - ١٨

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩٧؛ أبو شامة، الروضتين ج ١ ص ١٧٣

بالعديد من المهام الجسام في دولته، وها هو ذا بهاء الدين قراقوش يعهد إليه صلاح الدين بمهمة الإشراف على قصر الخليفة الفاطمي العاضد بالله، ونستطيع أن نعرف خطورة هذه المهمة إذا أدركنا أن القصر الفاطمي كان أحد الأماكن التي توقع صلاح الدين منها أن تقوم بالتآمر ضده، وقد قام قراقوش بهذه المهمة خير قيام؛ يقول عنه ابن الأثير^(٣): «فكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بأمره». وحينما أسقط صلاح الدين الدولة الفاطمية في أوائل سنة ٥٦٧ لعب قراقوش دورا أساسيا في الانتقال الهادئ بنظام الحكم من الفاطميين إلى صلاح الدين، كما أنه كان موفقا للغاية في الحفاظ على كل ما كان بالقصر من الأموال والتحف وغيرها^(٤).

لم يكن قراقوش وحده في الميدان فالمصادر التاريخية تشير إلى قائد آخر من قواد الأسدية كان موضع ثقة صلاح الدين هو يازكح أو إيازكوج، وقد وصلت ثقة صلاح الدين بهذا الزعيم الأسدي إلى درجة أنه عهد إليه في أواخر صفر سنة ٥٧٩ بمهمة إدارة الحكم في حلب، وذلك باسم الظاهر غازي بن صلاح الدين والذي كان آنذاك صغير السن إلى حد لا يتيح له أن يتفرد بالحكم^(٥). ولم تكن حلب ولاية عادية في دولة صلاح الدين، بل كانت ذات أهمية خاصة فقد ظلت لمدة عشرة أعوام مركزا لدولة الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود أو القوة المناوئة لصلاح الدين لدولته، وبعد استيلاء صلاح الدين عليها في أوائل سنة ٥٧٩ غدت تشكل الجناح الشمالي أو البوابة الشمالية في مملكته المترامية الأطراف، بل إن إمارة حلب في رأى البعض من رجال الأسرة الأيوبية، هي «أصل الملك وجرثومته وقاعدته»^(٦).

ما سبق عبارة عن إنجازات فردية لهذا أو ذاك من قادة الأسدية، فإذا التفتنا إليهم كجماعة نجد أنهم كانوا يشكلون مجموعة من المقاتلين المتميزين داخل جيش صلاح الدين الأيوبي، وقد سجل التاريخ للأسدية العديد من صفحات المجد والفخار، وعلى سبيل المثال ففي إحدى المعارك التي دارت بين المسلمين والصليبيين حول عكا

(٣) ح ١١ ص ٣٤٦.

(٤) المصدر السابق ح ١١ ص ٣٦٩.

(٥) ابن شداد، المصدر السابق ص ٦٤؛ ابن خلدون ح ٥ ص ٦٦٠.

(٦) ابن شداد، المصدر السابق ص ٧٣.

الإسلامية المحاصرة شكل الأسدية، الذين يضرب بهم المثل كما يقول ابن شداد^(٧) قسما من ميسرة الجيش الإسلامى، وفي هذه المعركة لحقت الهزيمة بالكثير من الجماعات الإسلامية المقاتلة، أما الميسرة، وفيها الأسدية، فإنها القوة الوحيدة التى بقيت صامدة، ومن ثم تحولت الهزيمة إلى نوع من الانتصار^(٨). وإذا تتبعنا المعارك التى خاضها صلاح الدين ضد الصليبيين، وما أكثرها، نجد أن الأسدية كان لهم دورهم البارز فى كل هذه المعارك والتى كان النصر من نصيب القسم الأكبر منها.

وهكذا تصل بنا الدراسة إلى القول بأن الأسدية فى دولة صلاح الدين لم يكونوا قوة منفصلة لها سياساتها وأهدافها التى تبتعد أو تتعارض مع سياسات وأهداف صلاح الدين، بل انهم فى الحقيقة ذابوا أو اندمجوا حتى غدوا جزءا من السلطة الشرعية وعلى رأسها صلاح الدين. أما الميادين التى مارست فيها الأسدية نشاطها فهى متعددة ومتنوعة تشمل الأعمال القتالية والأعمال الإدارية، وأيضا الميادين السياسية والإنشائية.

وعلى امتداد عهد صلاح الدين بذل الأسدية كل ما لديهم من طاقة فى خدمة دولته وتحقيق أهدافها فى مراحلها المختلفة، وذلك مع الإخلاص الكامل لسياسات صلاح الدين والغايات التى كان يكافح من أجلها، والسر فى اندماج الأسدية فى دولة صلاح الدين وإخلاصهم لها يرتبط بأكثر من عامل: منها شخصية صلاح الدين القوية والمحبة، ومنها كثرة وضخامة ونبل الأعمال التى شهدتها دولته بحيث لم تتح للأسدية أو لغيرها التفكير فى مصالح أو سياسات خاصة تبتعد عن مصالح وسياسات الدولة، ومنها رعاية صلاح الدين لزعماء الأسدية وتقديره لإنجازاتهم، والثقة فيهم والاعتماد عليهم فى الكثير من الأمور.

٣ - الصلاحية والأكراد :

وإلى جانب الأسدية كانت توجد جماعتان أخريان أتى ظهورهما بعد ظهور الأسدية،

(٧) المصدر السابق ص ١١١ .

(٨) المصدر السابق .

أولى هاتين الجماعتين هي «الصلاحية» وهي جماعة صبغتها الغالبة عسكرية، وتنسب كما هو واضح إلى صلاح الدين، وقد بدأ تكوين هذه الجماعة بتوجيه منه، تطبيقا للتقليد الذي كان سائدا آنذاك، وهو إحاطة كل قائد أو رجل دولة نفسه بمجموعة من الأتباع عن طريق الشراء أو غيره، أما وظيفة هؤلاء الأتباع فهي تنفيذ أوامر ولي نعمتها وفرض وجهات نظره أو سياساته، مع مساندته والدفاع عنه في مواجهة الأخطار.

والجماعة الثانية هي جماعة «الأكراد» وهي عسكرية الصبغة أيضا أخذت تتكون في عهد صلاح الدين وربما في نفس الوقت الذي كانت تتكون فيه جماعة الصلاحية، وجلى من كلمة «الأكراد» أن الرابطة بين أفرادها كانت الانتماء إلى أصل واحد هو الأصل الكردي، نفس الأصل الذي ينتمى إليه أبناء الأسرة الأيوبية، وهذا ما يفرق بينها وبين الصلاحية، أما ما يجمع بينهما فهو الولاء المشترك لصلاح الدين.

ويتساءل البعض عن مدى ضرورة تكوين هاتين الجماعتين إلى جانب الأسدية التي تحدثنا عنها في الصفحات السابقة، وللدرد على مثل هذا التساؤل يمكن القول بأن الأسدية كانوا في الأصل أتباع أسد الدين شيركوه، وبعد وفاته انتقلوا بولائهم إلى صلاح الدين، وهذا يعنى أن صلاح الدين كان في حاجة، مع وجود الأسدية، إلى تشكيل جماعة أو أكثر تدن له هو بالولاء، بل إن تشكيل الصلاحية والأكراد كان ضرورة عملية كى لا تستأثر جماعة الأسدية لنفسها بالقوة والنفوذ مما يدفعها في بعض الأحيان إلى إملاء إرادتها على صلاح الدين نفسه.

مهما يكن من أمر، فإنه كما سجل التاريخ للأسدية العديد من الأدوار السياسية والعسكرية في دولة صلاح الدين سجل أيضا للصلاحية والأكراد مشاركتهم البناء في تحقيق أهداف صلاح الدين السياسية والعسكرية^(٩).

٤ - مراكز القوى بعد صلاح الدين:

مع وفاة صلاح الدين في السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ هـ كانت توجد في دولته جماعات ثلاث كل منها كانت في وضع يؤهلها لأن تشكل من نفسها مركزا للقوة،

(٩) ابن شداد، المصدر السابق ص ٩٩، ١٠١، ١١٠، ١١٧.

تلك هي الأسدية والصلاحية، وكلتاها تكاد تعدل الأخرى في مستوى القوة والنفوذ، وتليهما في ذلك الجماعة الثالثة، جماعة الأكراد.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن دولة صلاح الدين توزعت بعد وفاته بين العديد من أولاده وأتباعه، ويعنينا داخل هذا التوزيع أن نعرف أن دمشق وتوابعها صارت منطقة نفوذ الأفضل نور الدين على، بينما صارت مصر وتوابعها من نصيب الملك العزيز عماد الدين عثمان، أما الملك الظاهر غياث الدين غازي فقد بقي مسيطرا على إمارة حلب، وإلى جانب هؤلاء الثلاثة كان يوجد الملك العادل، أما منطقة نفوذه فهي البلاد الشرقية ومعها الكرك والشوبك^(١٠).

ونلتفت إلى الجماعات الثلاث المشار إليها سلفا فنجد أنها توزعت بين كل من دمشق ومصر، وكان نصيب الأخيرة منهم أو فر منه بالنسبة لدمشق^(١١)، وذلك مع أن دمشق كانت مركز الدولة الأيوبية، والأفضل المقيم بها يحمل لقب «السلطان» أما الآخرون في مصر وفي حلب وفي غيرها فكانوا تابعين له.

يتحرك الزمن وتتلاحق التطورات ويسجل التاريخ حدوث تدهور حاد في العلاقات بين الأفضل من ناحية وكبار قادة الصلاحية من ناحية ثانية، أما أساس هذا التدهور فقد تركز على فكرة أوحى بها إلى الملك الأفضل وزيره ضياء الدين بن الأثير، تلك هي فكره التخلص من أمراء أبيه، واستبدالهم بآخرين يرتبط ولاؤهم بالأفضل نفسه، ومما قاله الوزير للأفضل مبررا لفكرته^(١٢): «هؤلاء خواص السلطان، وينظرون إليك بتلك العين، ويعتقدون أن حقهم واجب وجوب الدين، وهم - بحكم المعرفة لك من الصغر - يتبسطون ويشنتون ولا يقنعون، وأعمال دمشق لا تسعهم، وجميعها لا تقنعهم، والأعمال المصرية لهم أفسح وأوسع؛ وأما الغرباء فإنهم يقنعون بأي شيء أعطيتهم، ويعترفون بحقوقك ويعظمونك».

(١٠) ابن واصل، مفرج الكروب ح ٣ ص ٣ - ٤؛ أبو الفدا ح ٢ ص ١١٤.

(١١) كان جمهور الأسدية والصلاحية والأكراد بمصر، أما دمشق فكان بها الزعماء البارزون من الصلاحية (انظر المصدر السابق ح ٣ ص ٥).

(١٢) ابن واصل، مفرج الكروب ح ٣ ص ١٠ - ١١؛ وانظر تاريخ أبي الفدا ح ٢ ص ١١٥.

فترت العلاقات بين الأفضل وكبار أمراء أبيه من الصلاحية، وذلك في سنة ٥٨٩ نفسها، ففارقوه وانحازوا إلى أخيه الملك العزيز في مصر^(١٣)، وقد رحب بهم العزيز وأحسن إليهم، أى أنه عاملهم بنفس المستوى الذى كانوا يعاملون به في الفترة السابقة من قبل صلاح الدين.

نشأ عن انحياز زعماء الصلاحية إلى الملك العزيز، بالإضافة إلى من كان منحازا إليه سلفا من الأسدية والصلاحية والأكراد، حدوث اختلال كبير في موازين القوى بين الأفضل من ناحية والعزيز من ناحية أخرى، إضافة إلى أن الأخير كان يتطلع إلى السلطنة، وأن يحل هو محل أبيه بوصفه رأس الدولة الأيوبية، وقد عمل زعماء الصلاحية من جانبهم على تعميق هذه الفكرة لدى العزيز وتسهيل المهمة أمامه^(١٤).

ومزيذا من الإيجابية في الموقف تكونت من الصلاحية والأسدية والأكراد جبهة أو مركز قوة موحد هدفه الانتقال بملك دمشق إلى العزيز بجانب ملكه لمصر، وعبروا عن هذه الغاية بقولهم عن العزيز^(١٥): «هو أولى أولاد السلطان بذلك إذ هو المحيي لسنة والده في الشجاعة والكرم».

وهكذا يتبين لنا أن هذه الجماعات، والتي كانت على عهد صلاح الدين مندجة في دولته، قد تطورت بها الأحداث بسرعة حتى غدت كل منها تشكل مركزا من مراكز القوة؛ بل إن هذه المراكز الثلاثة اتحدت في جبهة واحدة أخذ زعماءها يرسمون مستقبل الدولة الأيوبية بالصورة التي تتفق وأهدافهم هم بصرف النظر عن توافق أو تعارض هذه الأهداف مع أهداف الدولة الأيوبية.

ويضع المؤرخون مسئولية هذا التطور السلبي على عاتق الأفضل الذى استجاب لنصيحة وزيره ضياء الدين ابن الأثير فنفر الصلاحية منه حتى تركوا دمشق والتجأوا إلى أخيه العزيز بمصر، وما قاله المؤرخون مقبول، ولكن يلزم أن يضاف إليه أنه بوفاء

(١٣) الذين انحازوا إلى الملك العزيز كبار الصلاحية مثل فخر الدين جهاكس وفارس الدين ميمون القصرى

وشمس الدين سنقر الكبير (انظر مفرج الكروب ح ٣ ص ١١)

(١٤) ابن واصل، المصدر السابق ح ٣ ص ١٢، ١٤: أبو الفدا ح ٢ ص ١١٥

(١٥) ابن واصل، المصدر السابق ح ٣ ص ٢٦.

صلاح الدين خلت الساحة السياسية من الشخصية القوية المحببة التي كانت مسيطرة على هذه الجماعات وموجهة لها بما يخدم الأهداف السامية لدولته، ثم إن تقسيم دولته بالصورة التي حدثت عقب وفاته فتح أمام هذه الجماعات فرصا عديدة للمناورة والمساومة للحصول على أكبر قدر ممكن من المكاسب على حساب هذا أو ذاك. ولا يغيب عنا أن الهدنة التي عقدها صلاح الدين مع الصليبيين في شعبان سنة ٥٨٨ (سبتمبر ١١٩٢) عطلت أبرز ميدان كانت تمتص فيه طاقات هذه الجماعات العسكرية، فغدوا يخططون لأمر أخرى من أبرزها تحريك الأحداث بالصورة التي تخدم أغراضهم.

* * *

مهما يكن من أمر، فقد تأزمت العلاقات بين الأخوين الأفضل والعزیز، ولكن لم تحدث مجابهة مسلحة بينهما في سنة ٥٩٠، وفي الوقت نفسه تحلى المزيد من زعماء الصلاحية عن الأفضل وانحازوا إلى العزیز بمصر^(١٦)، وأخذوا يزينون له فكرة انتزاع دمشق من أخيه الأفضل، وفي سنة ٥٩١ خرج العزیز على رأس جيشه الذي يضم القسم الأكبر من الصلاحية والأسدية والأكراد - خرج بهدف انتزاع دمشق من أخيه الأفضل، وذلك على الرغم من الصلح أو الاتفاق الذي تم التوصل إليه في السنة السابقة^(١٧).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان الملك العادل قد انحاز إلى جانب الأفضل فأخذ يعمل على تجريد العزیز من قوته المتمثلة في الصلاحية والأسدية والأكراد، وكان العادل يدرك أن روح المنافسة والتحاسد هي أساس العلاقات بين الصلاحية والأسدية حتى وإن بدا اتفاقهما في الوقوف معا إلى جانب العزیز فقد رأى زعماء الجماعة الأخيرة أن الصلاحية قد استأثروا بالمكانة الأولى لدى الملك العزیز^(١٨). وهذا ما لا يرضونه ولا يستسلمون أمامه.

(١٦) تخلى عن الأفضل في سنة ٥٩٠ الأمير عز الدين أسامة، أحد كبار الأمراء الصلاحية (انظر ابن واصل، المصدر السابق ح ٣ ص ٣٩).
(١٧) ابن الأثير ح ١١ ص ١١٠؛ ابن واصل، المصدر السابق ح ٣ ص ٣٥ - ٣٦.
(١٨) ابن الأثير ح ١١ ص ١١٩.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة بذل الأسدية جهودهم في تأليب الأفضل والعاقل ضد العزيز^(١٩) وفي الوقت نفسه أخذ الملك العاقل يعمل «في تأكيد الإيقاع بين الفريقين» كما يقول ابن واصل، ولم تقف جهود الملك العاقل عند هذا الحد، بل إنه أيضاً عمل على الإيقاع بين الملك العزيز من ناحية والأسدية من ناحية ثانية، وخاصة أولئك الذين كانوا في جيش العزيز أثناء زحفه على دمشق، وقد سجل التاريخ للملك العاقل أنه نجح في هذا الدور بشقيه، وكانت النتيجة أن تخلى الأسدية ومعهم الأكراد، عن جيش العزيز وانحازوا إلى جانب منافسة الملك الأفضل ومن كانوا معه من زعماء الأسرة الأيوبية، فما كان من العزيز إلا أن عاد إلى مصر منهزماً^(٢٠)

قوى جانب الأفضل بمن انحاز إليه من الأسدية والأكراد، فزحف الجميع على مصر، وكانت بلبس مسرح المجابهة التي كانت فيها كفة الصلاحية المناصرة للملك العزيز تفوق بشكل ظاهر الكفة التي عمل فيها الأسدية والأكراد، الأمر الذي حمل الملك العاقل على التحول عن القتال إلى سياسة الوفاق والتصالح، وفعلاً تم الصلح على أساس أن يعفو العزيز عن الأسدية والأكراد وأن يرد إليهم إقطاعاتهم، وفي الوضع الجديد أيضاً اختار الملك العاقل أن يقيم بمصر لمساعدة الملك العزيز في الحكم وتبدير الأمور^(٢١).

ونتيجة لهذه التطورات بقيت مصر مع أواخر سنة ٥٩١ مركزاً للملك العزيز ومعه الصلاحية وعدد من زعماء الأسدية الذين لم يخرجوا ضمن حملة العزيز على دمشق في الشهور السابقة، وآثروا أن يبقوا على ولائهم للملك العزيز، ونتيجة لهذه التطورات أيضاً غدت مصر مركزاً للملك العاقل، ومعه جمهور الأسدية والأكراد الذين عفا عنهم العزيز ورد إليهم أقطاعاتهم.

وهذا يعني أن خريطة القوى قد تغيرت بصورة جوهرية، فقد تطورت من ثنائية إلى ثلاثية الأطراف، أحدهما الأفضل في دمشق وهو على وجه التقريب مجرد من قوته المتمثلة

(١٩) ابن الأثير - ١١ ص ١١٩.

(٢٠) ابن الأثير - ١١ ص ١٢٠؛ ابن واصل، المصدر السابق - ٣ ص ٤٦ - ٤٧؛ أبو الفدا، المصدر السابق -

٢ ص ١١٩.

(٢١) ابن واصل، المصدر السابق - ٣ ص ٥١ - ٥٣.

في الجماعات العسكرية التي خلفها أبوه صلاح الدين، وثانيها الملك العزيز في مصر وهو يستند في قوته على الصلاحية وبعض الأسدية، وثالثها الملك العادل وقد غدا صاحب الكلمة النافذة في دولة العزيز^(٢٢)، إضافة إلى انصواء الأسدية والأكراد تحت رايته، وجلى أن الملك العادل قد غدا أقوى الأطراف الثلاثة، ومن ثم أخذت التطورات تتحرك في مسار جديد.

كانت الخطوة الأولى في هذا المسار هي اتفاق العزيز والعادل على انتزاع دمشق من الأفضل، ومعنى هذا أنه أتيحت فرصة لمراكز القوى الثلاثة، الصلاحية والأسدية والأكراد، ليعملوا في إطار واحد، وذلك على الرغم مما كان بينهم من المنافسة والتحاسد، وأيضا اختلاف الأهداف. ومن الناحية الفعلية انتزعت دمشق بدون قتال يذكر، وذلك في رجب سنة ٥٩٢، وأصبحت جزءا من دولة الملك العزيز، وتولى الملك العادل حكمها وإدارة شئونها، أما الأفضل فقد آلت به الحال إلى الانزواء في صرخد^(٢٣).

بهذه التطورات كاد الأفضل أن يختفى من المسرح السياسي للدولة الأيوبية، وهذا أمر طبيعي لأنه كان الطرف الضعيف لعدم استناده إلى أى من مراكز القوى، على حين ازداد العادل قوة لأنه انفرد أو كاد بحكم دمشق وتوابعها، أما الملك العزيز فقد بدا ظاهريا أقوى من ذي قبل بحكم سيطرته الاسمية على دمشق، ولكن إذا عرفنا أن الملك العادل كانت تحكمه في تصرفاته تطلعاته السياسية الكبيرة لقلنا عن العزيز إنه خرج من هذه التطورات وقوته على مستواها السابق.

* * *

ونلتفت إلى مراكز القوى فنجد أن الصلاحية قد ازدادوا قوة في مصر عن ذي قبل، فهم الذين وقفوا إلى جانب العزيز في مواجهة التحالف الذي ضم عمه العادل وأخاه الأفضل في سنة ٥٩١، وبمؤازرتهم تم انتزاع دمشق من الأفضل، وفوق هذا وذاك فإنهم لم يتذبذبوا في ولائهم منذ تخلوا عن الأفضل وانحازوا إلى الملك العزيز في سنة ٥٨٩.

أما الأسدية، وقد بقى معظمهم في مصر، فإنهم احتلوا المكانة الثانية، ولم يكن لهم

(٢٢) ابن واصل، المصدر السابق ح ٣ ص ٥٤ - ٥٥.

(٢٣) المصدر السابق ح ٣ ص ٦١ - ٧٠: أبو الفدا المصدر السابق ح ٢ ص ١٢٠.

ليتطلعون لأكثر من ذلك وهم الذين سجل عليهم التاريخ أنهم في سنة ٥٩١ تخلوا عن العزيز في ظرف حرج للغاية، وانحازوا صراحة إلى جانب المعسكر المعادى، معسكر الأفضل ومن معه، وفي المكانة الثالثة أو الأخيرة كانت توجد جماعة الأكراد، والعوامل التى نزلت بالأسدية إلى مكانتها هى نفسها العوامل التى جعلت الأكراد فى المؤخرة، فالجماعتان تحسبان تاريخيا من أتباع الأفضل، وتضاول مكانة الأفضل تؤدى بالضرورة إلى تضاول مكانة الجماعتين، هذا بالإضافة إلى أن الأكراد كما يبدو كانوا من الناحية العددية أقل بكثير من الأسدية، وزعيمهم حسام الدين أبو الهيجاء السمين لم يكن يتناول إلى مكانة زعماء الأسدية.

أصبحت الظروف كلها مواتية أمام الصلاحية لى يمارسوا أكبر قدر من النفوذ والسلطان فى دولة العزيز، وهذا ما سجله التاريخ بالفعل: فعلى مدى الشهور الثلاثين التالية كانت جماعة الصلاحية هى القوة الحاكمة فى مصر، وكان زعيمهم فخر الدين جهاركس هو الحاكم الفعلى فى دولة الملك العزيز، يقول ابن الأثير عن زعيم الأسدية^(٢٤): «وهو الحاكم فى بلده» أى بلد العزيز، ويقول عنه ابن واصل^(٢٥): «وكان الغالب على أمر الملك العزيز فخر الدين جهاركس، وهو الحاكم فى الدولة». ويؤكد أبو الفدا هذه الحقيقة حين يقول: «وكان الغالب على دولة الملك العزيز فخر الدين جهاركس»^(٢٦).

وفى ضوء هذه النصوص وأمثالها يستطيع الباحث أن يقول: إن الفترة الذهبية بالنسبة للصلاحية تمثلت فى سنتين ونصف من آخر عهد الملك العزيز، وقد وصل الصلاحية إلى هذا المستوى الكبير من القوة على حساب ضعف كل من الأسدية والأكراد من ناحية، وأيضا العلاقات السيئة بين أبناء الأسرة الأيوبية من ناحية ثانية.

والمقارنة بين صورة هذه الجماعات فى عهد صلاح الدين وصورتها فى عهد ابنه العزيز تصل بنا إلى إبراز مدى التطور الذى طرأ عليها من حيث طبيعتها ووظيفتها وأيضا غاياتها؛ ففى عهد صلاح الدين كانت هذه الجماعات مجرد جماعات عسكرية

(٢٤) ح ١١ ص ١٤٠

(٢٥) المصدر السابق ح ٣ ص ٨٧.

(٢٦) المصدر السابق ح ٢ ص ١٢٤

مقاتلة، وظيفتها خدمة صلاح الدين والعمل بإخلاص تحت رايته في مختلف الميادين العسكرية والإدارية والإنشائية، أما غاياتها فهي نفسها غايات صلاح الدين، ومن هنا كانت هذه الجماعات في عهده إيجابية وبناءة بالنسبة للدولة الأيوبية.

وفي عهد الملك العزيز انقلبت هذه الجماعات إلى مراكز قوة قائمة بذاتها، ووظيفة كل مركز خدمة أغراضه الخاصة أو أغراض زعمائه مع إبراز شخصيته المتميزة إلى جانب المركزين الآخرين، أما غايات كل مركز فهي العمل لتحقيق مصالحه الخاصة، أو بالأحرى مصالح زعمائه، سواء على حساب مراكز القوى الأخرى أم على حساب دولة الملك العزيز؛ أى أنها انقلبت من إيجابية إلى سلبية، ومن بناءة إلى قوة هدفها بناء نفسها ولو على حساب هدم الآخرين.

٥ - مراكز القوى بعد العزيز:

في المحرم سنة ٥٩٥، وبينما كان الصلاحية في ذروة قوتهم، توفي الملك العزيز، وقد فجر موته مشكلة كبرى بالنسبة لمراكز القوى، وخاصة الصلاحية والأسدية، فقد أراد زعماء المركز الأول ألا يؤدي انتقال الملك بعد العزيز إلى ضياع شيء من مكانتهم أو نفوذهم، أما الأسدية فقد وجدوا في موت العزيز فرصة قد تتيح لهم أن يأتوا إلى العرش بواحد من أصدقائهم علمهم في ظله يستردون قوتهم التي فقدوها إبان عهد العزيز. وقد شهدت الأسابيع القليلة التي أعقبت وفاة العزيز صراعا مقنعا بين الجانبين جاءت نهايته في صالح الأسدية.

في أول الأمر استغل زعماء الصلاحية غياب كبير الأسدية عن العاصمة المصرية، وقرروا أن يلتزموا بوصية الملك العزيز فيؤول الملك بعده إلى ابنه الملك المنصور محمد الذي كان آنذاك دون العاشرة^(٢٧)، ولاشك أن هذا الاتجاه في حالة نجاحه كان سيؤدي بالصلاحية إلى التمتع بالمزيد من القوة والتحكم في شؤون مصر، وفي الوقت نفسه تزداد مكانة الأسدية ضعفا وتدهورا.

من هنا نعرف السر في معارضة الأسدية، ممثلين في زعيمهم سيف الدين يازكج (أو

(٢٧) ابن الأثير ح ١١ ص ١٤٠؛ ابن واصل ح ٣ ص ٨٧؛ ابن تغري بردي ح ٦ ص ١٤٦.

أيازكوج) لما ارتأه زعماء الصلاحية، وبالتالي اجتمع زعماء المعسكرين ليتفقا على الشخص الذى سيؤول إليه الملك بعد العزيز، وقد استقر الرأى على إبقاء المنصور فى منصبه تنفيذا لوصية والده، مع استدعاء واحد من أبناء صلاح الدين يدبر المملكة ويقوم بأتابكية الملك المنصور حتى يصل إلى السن التى تؤهله للانفراد بالحكم، أما الشخص الذى رشحه زعيم الأسدية وقبل به زعيم الأسدية فهو الأفضل بن صلاح الدين، نصير الأسدية^(٢٨).

ويبدو موقف الصلاحية غير مفهوم، إذ كيف أسلموا قيادة الأحداث للأسدية إلى هذا الحد، وهذا الغموض يمكن فهمه من حقيقة أن الأسدية كانوا فى مستوى متقارب مع الصلاحية من الناحية العددية، والعامل المرجح لكفة الصلاحية فى الفترة السابقة، وهو الملك العزيز، قد انتهى، وهذا يعنى أن الأسدية كانوا على استعداد، إذا لم تلب مطالبهم وهى معقولة، أن يدخلوا مع الصلاحية فى صراع مكشوف، ومثل هذا الصراع لم تكن نتيجته مضمونة بالنسبة للصلاحية فأثر زعمائها أسلوب المناورة.

وفى إطار مناورة الصلاحية سجل التاريخ لهم أنهم أرسلوا إلى أتباعهم فى دمشق يطلبون منهم الحيلولة بين الأفضل والوصول إلى الديار المصرية، ومما قاله الصلاحية لأتباعهم فى دمشق^(٢٩): «قد اتفقت الأسدية على الأفضل، وإن ملك الأفضل الديار المصرية حكموا علينا، فامنعوا الأفضل من المجئ». غير أن الأفضل نجح بالفعل فى الوصول إلى الديار المصرية، وذلك فى أوائل ربيع الأول سنة ٥٩٥.

بوصول الأفضل إلى مصر تحقق زعماء الصلاحية أنهم قد خسروا الجولة فى هذا الصراع، وأن أياما صعبة تنتظرهم فى مواجهة التحالف الذى يضم الأفضل والأسدية، وخاصة أن الأفضل كان قد عرف، وهو فى طريقه إلى مصر، بأمر الرسالة السرية التى بعث بها الصلاحية إلى أتباعهم فى دمشق والقدس والتى كانت تستهدف منع الأفضل

(٢٨) المصادر السابقة .

(٢٩) ابن تغرى بردى ، المصدر السابق ح ٦ ص ١٤٧ .

من الوصول إلى مصر^(٣٠)، فما كان من فخر الدين جهاركس ورفاقه إلا أن قرروا الخروج من مصر والالتجاء إلى القدس^(٣١).

وفي القدس انضم إلى فخر الدين جهاركس ومن معه آخرون من كبار الصلاحية، وصاروا في حشد كبير، وأخذوا يخططون لتوجيه التطورات في الدولة الأيوبية، وبالقوة، إلى المسار الذى يقدمهم ويحقق أهدافهم، وفي هذه الظروف الصعبة وجد الصلاحية أن التحالف مع العادل هو خير وسيلة للخروج بهم من هذه الأزمة، فكاتبوه وطلبوا منه القدوم لى يقوم بأتابكية الملك المنصور^(٣٢).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أخذت الأوضاع في مصر تستقيم للأسدية فقد قبض الأفضل على من بقى من زعماء الصلاحية في مصر، وفي الوقت نفسه تولى زعيم الأسدية سيف الدين يازكج تدبير الدولة والتحكم فيها، كما كان عليه الحال بالنسبة لزعيم الصلاحية فخر الدين جهاركس مع العزيز؛ يقول ابن الأثير^(٣٣): «وأقام الأفضل في القاهرة وأصلح الأمور، وقرر القواعد، والمرجع في جميع الأمور إلى سيف الدين يازكج».

* * *

كانت دمشق في نظر كل من الجانبين هي العامل المرجح، بل والحاسم، فهذه المنطقة كانت أحد شطرى دولة العزيز التي كانت تضم الشطر الثانى مصر، وقد آلت الأمور في مصر إلى الأفضل ومعه الأسدية، ومن الطبيعى في نظر الأسدية أن ينسحب ما حدث في مصر على دمشق وتوابعها. ومن وجهة نظر الصلاحية فإن ما حدث في مصر لا يتفق ومصلحتهم الحالية والمستقبلية، ومن الضرورى الإطاحة بالأفضل والأسدية، ولكى يتحقق ذلك يلزمهم أن يتخذوا من دمشق قاعدة لهم، ويلزمهم أيضا أن يتحركوا في إطار التبعية لواحد من كبار زعماء البيت الأيوبى، والأصلح لهذه الغاية هو الملك العادل الذى كان له حكم دمشق من قبل الملك العزيز.

(٣٠) ابن واصل، المصدر السابق ح ٣ ص ٩١ - ٩٢.

(٣١) المصدر السابق؛ ابن تغرى بردى، المصدر السابق ح ٦ ص ١٤٧.

(٣٢) ابن واصل، المصدر السابق ح ٣ ص ٩٢. (٣٣) ح ١١ ص ١٤٢.

وهكذا حرك الأسدية والصلاحية الأحداث في الدولة الأيوبية نحو صراع مباشر قدر على دمشق أن تكون مسرحا له، كما اتضح أن عددا من زعماء الأسرة الأيوبية كانوا بمثابة واجهات لهذا الصراع: فاتخذ الأسدية من الأفضل واجهة لهم، وإلى جانب الملك الأفضل انحاز أخوه الملك الظاهر غازي، أما الصلاحية فإنه بدا لهم أنهم اتخذوا من الملك العادل واجهة لصراعهم على حين أن تحرك الملك العادل كان محكما بتطلعاته هو، وهي التطلعات التي كانت أولى ثمارها حكمه لدمشق باسم العزيز في سنة ٥٩٢.

مهما يكن من أمر، فقد شهدت دمشق ابتداء من شعبان سنة ٥٩٥ صراعا دمويا عنيفا بين العادل ومعه الصلاحية من ناحية، والأفضل والظاهر ومعهما الأسدية من ناحية ثانية، ومع الصراع العسكري استعمل العادل دهاءه السياسي في إفساد العلاقات بين الأخوين الأفضل والظاهر، ومن ثم انسحبا من حول دمشق في صفر سنة ٥٩٦^(٣٤)، ورجع كل منهما بقواته إلى بلده، وهذا يعنى من إحدى زواياه هزيمة الأسدية ورجحان كفة الصلاحية.

لم يضيع العادل والصلاحية وقتا، بل إنهم زحفوا خلف الأفضل صوب مصر، وعلى مقربة من القاهرة دار قتال بين الجانبين منى الأفضل فيه بالهزيمة، ومن ثم وجد أن المفاوضات هي الوسيلة الوحيدة للحصول على بعض مناطق النفوذ، وفعلا وافق العادل على منحه منطقة نفوذ أهمها مدينة ميفارقين^(٣٥)، وهذا يعنى إبعاد الأفضل إلى أقصى الأطراف الشمالية الشرقية للدولة الأيوبية.

في ربيع الآخر سنة ٥٩٦ دخل العادل مدينة القاهرة، دخلها دخول المنتصرين ومعه مؤيدوه الصلاحية، وقد اعتبر الصلاحية هذا الدخول انتصارا لهم وتوتيجا للجهود التي بذلوها منذ فروا من مصر خوفا من الأفضل والأسدية في السنة السابقة، على حين اعتبر العادل هذا الدخول الخطوة قبل الأخيرة في تحقيق تطلعاته السياسية.

ويختلف دخول العادل القاهرة في سنة ٥٩٦ عن دخوله السابق في سنة ٥٩١، ففي الدخول السابق دخل العادل القاهرة ومعه الملك العزيز ابن صلاح الدين، الذي ناهز

(٣٤) ابن الأثير ح ١١ ص ١٤٣ - ١٤٥؛ ابن واصل ح ٣ ص ١٠٦ - ١٠٧؛ أبو الفدا ح ٢ ص ١٢٧.

(٣٥) ابن الأثير ح ١١ ص ١٥٦، ابن واصل ح ٣ ص ١٠٩؛ ابن تغرى بردي ح ٦ ص ١٥٠.

الخامسة والعشرين ويؤيده الصلاحية الذين كانوا آنذاك على درجة عالية من القوة، أما في سنة ٥٩٦ فقد دخل العادل القاهرة بعد انتصارين، دخلها بوضعه أتابكا للملك الطفل ابن السنوات العشر، المنصور بن العزيز بن صلاح الدين، دخلها في وقت كانت العلاقات فيه بين أبناء صلاح الدين، وخاصة الأفضل والظاهر، قد ساءت وتعقدت بشكل كبير، إضافة إلى أن العلاقات بين الصلاحية والأسدية قد وصلت في تدهورها إلى مستوى يصعب الرجوع عنه.

٦ - نهاية مراكز القوى :

دخل العادل القاهرة وكانت كل الظروف مواتية له لكي يحقق تطلعاته السياسية، وهي السيطرة على الدولة الأيوبية، وفعلا سجل له التاريخ أنه في شوال سنة ٥٩٦ أقدم على الخطوة الأخيرة حيث أزال اسم الملك المنصور من الخطبة ونادى بنفسه سلطانا على الدولة الأيوبية^(٣٦) وتذهب إحدى الروايات إلى القول بأن العادل قد أقدم على هذه الخطوة بتشجيع من الأسدية الذين خافوا من تزايد قوة منافسيهم الصلاحية، وأرادوا أن يكسبوا ود العادل فحسنوا له الاستقلال بالملك^(٣٧). وقد أغضبت هذه الخطوة الصلاحية لأنهم رأوا فيها نهايةهم فحاولوا التصدي للملك العادل على أساس أنهم ناصروه بوصفه أتابكا للملك المنصور، وليس بوصفه سلطانا متفردا بحكم الدولة الأيوبية، وحاول الصلاحية كسب الأسدية إلى جانبهم في هذا الموقف الجديد، ولكنهم أخفقوا في ذلك^(٣٨)، ومن ثم غدت المجابهة وشيكة الوقوع بين الصلاحية من ناحية والملك العادل من ناحية ثانية.

حاول بعض زعماء الصلاحية أن يجدوا لهم واجهة من بين أبناء صلاح الدين، وقد وجدوا بغيتهم في الملك الظاهر غازي، وانضم إليهم الأفضل، وهاجم الجميع مدينة دمشق

(٣٦) ابن الأثير ح ١١ ص ١٥٦: ابن واصل ح ٣ ص ١١٠ - ١١١: أبو الفدا ح ٢ ص ١٢٨: ابن تغري بردي ح ٦ ص ١٥٢.

(٣٧) ابن واصل ح ٣ ص ١١١ - ١١٢.

(٣٨) المصدر السابق ح ٣ ص ١١٢.

في سنة ٥٩٧، ولكن الملك العادل نجح في إثارة الشقاق بين الأخوين الظاهر والأفضل فانسحبا من المعركة، كما فر منها أيضا زعماء الصلاحية. وذلك في أوائل سنة ٥٩٨^(٣٩).

إن هزيمة التحالف المعادي للملك العادل وانسحاب أعضائه من حول دمشق يعني أمورا كثيرة من بينها نهاية الصلاحية كمركز للقوة يقى زعماءه يمارسون نفوذا مطلقا على الدولة الأيوبية لعدة سنوات، فقد تفرق زعماء هذه الجماعة هنا وهناك كل يبحث عن مصالحه الذاتية، وخاصة أن الدولة الأيوبية قد انتظمت بكل أقاليمها تحت سيطرة الملك العادل.

إن سيطرة الملك العادل على الدولة الأيوبية قريبة الشبه بسيطرة أخيه صلاح الدين، فقد عادت الدولة الأيوبية دولة موحدة من جديد، تحت سيطرة العادل ذي الشخصية القوية، وفي هذا المناخ الجديد أخذت مراكز القوى الثلاث في الانكماش، سواء في ذلك ما كان معاديا وما كان يبذو مواليا، ثم تلاشت بصورة نهائية وحاسمة بعد سنوات.



(٣٩) المصدر السابق ج ٣ ص ١٢٣ - ١٢٦: ابن الأثير ج ١١ ص ١٦٢ - ١٦٣.